

الشيخ محمد الثابتي

حياته وآثاره

صلاح الدين بن نعوم | باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية



يُعد الشيخ محمد الثابتي السحنوني من بين علماء معسكر القرن الماضي، بل من بين علمائها الذين تفقهوا في المذاهب الأربعة، وتوسعوا في العلوم النقلية والعقلية، فضلا عن رحلته العلمية بالمشرق الحافلة بالتحصيل والمواقف، رغم ذلك، لا تزال الدراسات حول سيرته وآثاره قليلة جدا، فلم أقف إلا على دراسة وحيدة تطرقت لحياة الشيخ؛ ثم هذا المقال الذي يحاول كشف المزيد عن حياة الشيخ وآثاره من خلال مصادر جديدة.

الثابتي تدريسه العلوم العقلية من منطق وفلسفة وفلك، بعد أن عدّ له الأخير العلوم التي تلقاها في رحلته،⁴ وهذا شأن العلماء الربانيين الذين طلبوا علوما من تلامذته، ومثله فعل العلامة الحافظ **أبو راس الناصري** حين أخذ علوم اللغة والنحو على أحد طلبته.

تصوفه

أما في علوم القوم والحقيقة، فقد التمس منها سبيلا وبلاغاً، حيث اتبع الشيخ **الثابتي** الطريقة الدرقاوية الشاذلية، وصام يومي الإثنين والخميس مذ كان في سن الخامسة والعشرين، فعُرف بـ "صايم الدهر"،⁵ كما سلك رحمه الله سبيل أولي الألباب والراسخين في العلم، من حيث التسليم اتجاه من أوتي الحكمة والعلم اللدني، وهذا ما يؤكد في نسخه وتعليقه على قصيدة ابن عمه كلاله الشيخ سيدي محمد بلوهراني التي مطلعها

رحلته العلمية إلى المشرق الإسلامي —

التحق الشيخ **الثابتي** بالمدرسة "القادرية" بحاضرة بغداد ومكث بها أربع سنين،² تلقى فيها قطر الندى في النحو، والفقه على المذاهب الأربعة، والفلك والفلسفة والمنطق والحساب، ثم جال بأرض الشام (سوريا، فلسطين، لبنان والأردن)، وقصد اليونان في بحث واستقصاء في الفلسفة اليونانية القديمة، فتعلم بها اللغة اليونانية واللاتينية القديمة، ثم حجّ للمرة الثانية إلى البقاع المقدسة وعرج إلى القدس، وبها تعرض للتوقيف من طرف إنجلترا مشبوها بالتجسس.³

التحق الشيخ بعد ذلك بمعهد "الزيتونة" في تونس، وفيها اتصل بأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ووفودها من الطلبة، ليعود فيما بعد إلى زاوية العطار لدى شيخه، الذي وعلى جلالته قدره، وعلو مقامه ومشيخته، طلب من الشيخ محمد

نسبه

هو العلامة الموسوعي، الفقيه النوازلي، النحوي اللغوي، المنطقي الحيسوبي، سيدي محمد **الثابتي** بن عبد القادر بن محمد بن الحبيب بن عبد القادر الملقب ثابت بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن سحنون الشارف بن أحمد بن محمد بن سيدي أحمد بن علي الغريسي الثعباني التركماني الحسيني.¹

نشأته وتكوينه

ولد (رضي الله عنه) سنة 1905م، بدوار "السحانيين" من سهل "غريس"، حفظ في أول أمره القرآن الكريم، وأخذ علوم الدين واللغة على الشيخ سيدي بن شرقي بزاوية العطار بالشلف، وكان قد مكث بها عشرين سنة مذ كان عمره إثني عشرة سنة، ولما رأى فيه شيخه قوة حافظته، وسعة عقل، وصفاء ذهب، مع قابلية التلقي والاستيعاب، وجّهه إلى المشرق الإسلامي.

"يا شَيْخِي يا شَيْخ دَنْق واش يَصِير..."، حيث قال الشيخ **الثابتي** في آخرها ما نصه: "والدافع في نظر هذا الكلام، لأنه ظهر ولم يبق منه إلا القليل، والشرعية تؤيده **﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾** والكرامات بنات المعجزات، والتسليم أولى بأولي الألباب، محمد الثابتي هـ"، وقد حدّثني حفيده عن كرامات لجده الشيخ **محمد الثابتي** شاهدها هو بنفسه.⁶

مشيخته

عاد الشيخ **محمد الثابتي** إلى معسكر وفي جعبته علوم من المغرب والمشرق، ليتولى التدريس بزواية "**سيدي أبي عمران البهلولي الخليلي**"، وتخرج على يديه كثير من الطلبة الذي ارتقوا إلى مصاف الشيوخ والأساتذة بالجزائر وتونس وغيرهما، وشارك في الحياة الثقافية العلمية والدينية بمعسكر، ترك خلالها بصمات ومواقف بارزة، فقد كان على المجمل ذو أقوال وأفعال، صداعا بالحق، محاجبا نقادا، لا يخاف في الله لومة لائم، فخطاباته فترة الاحتلال لم تخلوا من نصرة ثورة أول نوفمبر المباركة، وبعد الاستقلال لم تخلوا من انتقاد ونصح رؤساء الجزائر ومسؤوليها الكبار، فضلا عن الخطابات الإصلاحية الموجهة للمجتمع.

ومن مواقفه العلمية ما ذكره الأستاذ **الجيلالي محمد** في منقبه، ونصه: "أن سألته يوما عن أحد العارفين باللغة يتحدى العالم أن يكون عربي واحد قادر على أن يعرب «لا إله إلا الله محمد رسول الله» على خمسة أوجه، فكان ردّه رحمه الله أن قال للسائل: صاحب هذا التحدي عُوْلِمَ لا عالم، لأنه قد لا يعرف أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله» تعرب على سبعة أوجه لا خمسا فقط وعربها لي على أوجهها السبعة، وسألته مرة أخرى في مرضه وهو ينيّف عن ثمانين، عن مسألة في النسخ والمنسوخ ولما كان متعبا عن الكلام قال لي عليك بالصفحة كذا من الكتاب كذا بالطبعة كذا من مكتبته الغنية"، وكان كلما حج استفتاه وناقشه كثير من أهل العلم بالحرمين في مسائل عديدة متعلقة خاصة بفقه الحج وقواعد اللغة العربية ونحوها أي ما يتعلق باللفظ اللغوي القرآني وفي فلسفة المتكلمين.⁷

آثاره

ترك الشيخ **الثابتي** آثارا وتآليف مختلفة، منها تأليف في فقه الحج على المذاهب الأربعة، وضع رحمه الله فيه بصمته من خلال إبداء آرائه الفقهية فيما يتعلق بمناسك الحج، خاصة في مسائل الهدي والفدية، فضلا عن ما اصطبغ به التأليف من صبغة تاريخية توضح بشكل كبير ما كانت عليه أحوال الحجاج وسياسة تسيير مناسكهم من طرف المملكة سنوات الثمانينات، لأن المؤلف رحمه الله اعتمد كثيرا في تأليف كتابه على المعاينة والتجربة خلال أربع حجات أداها.⁸ وله تأليف أيضا في نسب أولاد سيدي أحمد بن علي، وهو في ثلاث كراسات،⁹ وله مجموع خطابات إصلاحية ألقاها بمعسكر قبل الاستقلال وبعده،¹⁰ ونوازل كثيرة منها سبعة عشر فتوى في الطلاق غير الرجعي، وله تحقيق لبعض المخطوطات والكتب، مثل تحقيقه لنسخة مخطوطة من كتاب "**الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز**" لابن عمّه سيدي **العربي بن عبد الله شنتوف**، أكثره تصويب أو شرح في نسب أولاد سيدي أحمد بن علي الحسيني، ومن ذلك على سبيل المثال قول الشيخ **العربي** في تأليفه المذكور: "قلت أن سيدي أحمد بن علي خلف الجيلاني"، قال الشيخ **محمد الثابتي** معلقا على الهامش: "قوله أن سيد أحمد بن علي خلف الجيلاني ومحمداً، فيه اختصار ظاهر يدل عليه ما يأتي، صححه محمد الثابتي هـ"، ومن ذلك أيضا قول الشيخ **العربي بن عبد الله** في اللوحة الموالية من نفس

التأليف ما نصه: "ثم أن سيدي عبد الله وهو الرابع من أولاد سيدي أحمد بن علي"، قال الشيخ **محمد الثابتي**: "سبق قلم، وصوابه: وهو الرابع من أولاد سيدي سحنون وهو ظاهر، صححه محمد الثابتي هـ".¹¹

وللشيخ فتاوى ونوازل، تبين لنا مدى حرص الشيخ على المرجعية الدينية للجزائر بمذهبها المالكي، رغم أن الشيخ له اطلاع على المذاهب الأربعة، كما توضح هذه الفتاوى والنوازل تمكنه من المذهب المالكي ومعرفته بالاختلاف وإطلاعه على أمهات كتبه، مثل: "الموطأ"، "نوازل ابن الحاج"، "شفاء الغليل في حل مقفل خليل" لابن غازي المكناسي، "مصنفات ابن عرفة المالكي الأشعري"، "شرح مختصر خليل" لمحمد بن يوسف المواق، و"مواهب الجليل في شرح مختصر خليل" وغيرها. أما منهجه في نص الفتوى على ما وقفت عليه، فيبتدئ بموضوع الفتوى أو النازلة كعنوان، ثم يُعطي رأيه في المسألة باجتهاد منه مع ذكر القاعدة الفقهية التي استند عليها، أو إحالة إلى نص الفتوى من كتب الفقه المالكي، ثم يخوض في تفصيل المسألة وأوجهها، كذا أقوال العلماء فيها.¹²

وفاته

توفي الشيخ **محمد الثابتي** رحمه الله تعالى في 24 جانفي سنة 1994م،¹³ وضرّحه معلوم بمقبرة أولاد سيدي أحمد بن علي الغريسي بمعسكر.

الهوامش

- 1 محمد الثابتي، تقييد نسب أولاد سيدي أحمد بن علي الغريسي، مخطوط بخزانة السيد أحمد الثابتي، معسكر، لوحة 79 (ظهر).
- 2 وقيل سبع سنوات.
- 3 الجيلالي محمد، معسكر ومناقب أئمتها في القرن العشرين، نشر ابن خلدون، تلمسان، ص 37، 38. ورواية شفوية عن حفيده السيد أحمد الثابتي في أبريل 2019م.
- 4 المصدر نفسه.
- 5 عن حفيده السيد أحمد الثابتي، وانظر أيضا: الجيلالي محمد، المصدر السابق، ص 38.
- 6 تعليق الشيخ محمد الثابتي على قصيدة بلوهراني، مخطوط مصور بخزانة الوالد السيد محمد بن نعم، معسكر.
- 7 عن حفيده السيد أحمد الثابتي. وانظر أيضا: الجيلالي محمد، المصدر السابق، ص 38، 50.
- 8 محمد الثابتي، فقه الحج على المذاهب الأربعة، مخطوط بخزانة السيد أحمد الثابتي، معسكر.
- 9 محمد الثابتي، تقييد نسب أولاد سيدي أحمد بن علي، مخطوط بخزانة السيد أحمد الثابتي، معسكر، ج 1.
- 10 محمد الثابتي، مجموع خطب ودروس، مخطوط بخزانة السيد أحمد الثابتي، معسكر.
- 11 العربي شنتوف، مخطوط الحقيقة والمجاز، نسخة خزنة الشيخ محمد التهامي، تغنيف -معسكر-، لوحة 39 (ظهر) 40 (ظهر) 50 (وجه).
- 12 جواب الشيخ محمد الثابتي في مسألة ترتيب الفرائض من الصلوات، وثيقة مخطوطة مصورة بخزانتي.
- 13 حسب زيارتي الميدانية لمقبرة سيدي أحمد بن علي، مطمور، معسكر، ومعاينة شاهد قبر الشيخ محمد الثابتي رحمه الله.